الأمير عبد القادر «القائد العسكري» (1832-1847)

من إعداد: العقيد بوروينة عبد القادر
مدير/ م و د ب ت ع ج/ ن ع1

مقدمـــــــة:

لم يرث الأمير ملكا يتربع على عرشه وينعم بما يوفره ذلك من سلطة وجاه، ففي سن الرابعة والعشرين وجد نفسه في مواجهة واقع على درجة كبيرة من الصعوبة والتعقيد، بفعل الاحتلال الفرنسي وتباين مواقف شيوخ القبائل من ذلك.

ولذلك فإن الأمير وهو يقبل البيعة، كان يدرك حجم المهام التي أوكلت إليه، وكان على دراية تامة بأن الوضع كان يتطلب قائدا عسكريا عبقريا، وزعيما محنكا، وقد جمع فعلا من الصفات ما لم يجمعه أحدا، وفي هذا السياق يقول الدكتور (نكولا زيادة) في تقديمه لكتاب تاريخ الأمير العسكري والإداري للدكتور (أديب حرب): «**الحديث عن الأمير عبد القادر الجزائري هو حديث عن الإيمان القويم والخلق الرفيع والنظر الثاقب والعلم الغزير والصمود الدائم والعزيمة التي لا تفل والإرادة الحديدة والزعامة المكرمة، هذه بعض الصفات التي تحلى بها أول بطل عربي قارع الإستعمار وصمد له سبعة عشر عاما طوالا ...**»[1].

وقد كانت مسيرة الأمير الاستثنائية، وما حققه من إنجازات في الميدان السياسي والعسكري والديني والثقافي مواضيع دراسات متعددة، بينما لم يأخذ الجانب العسكري في هذه المسيرة حقه من الدراسة الكافية.

لقد خاض الأمير حربا طويلة الأمد ضد الاحتلال الفرنسي، دفاعا عن الوطن وسعيا لبناء دولة الدولة الجزائرية الحديثة، وقد أدار هذه الحرب بمهارة فائقة، جعلت الكثير من المهتمين بدراسة مسيرته الجهادية يشيدون بحنكته وقدراته القيادية، وعلى سبيل المثال يقول عنه فرحات عباس: «**...وكثيرا ما خرج الأمير من تلك المعارك ظافرا منتصرا، وأعطى الدليل بأنه جمع الحداقة الدبلوماسية الفائقة مع العبقرية العسكرية السامية والمهارة الحربية الرائعة**»[2].

بينما يرى البعض أن الأمير كان مدفوعا بعامل ديني قوي وأن الظروف والأحداث فقط هي التي أجبرته على الدخول في المعركة ضد الإحتلال الفر نسي، فهل كان الأمير قائدا عسكريا، أم رجل دولة أم إماما ملهما أم كل ذلك معا؟؟.

I. الوضع السياسي العسكري السائد خلال بيعة الأمير عبد القادر:

يقتضي الإلمام الجيد بسير الأحداث التاريخية وتطورها، معرفة مميزات الوضع السياسي-العسكري غداة دخول المحتل الفرنسي إلى بلادنا، فبعد نجاح (دوبورمون) قائد الحملة العدوانية الفرنسية في كسر الدفاعات الجزائرية وتشتيت الجيش الجزائري في معركتي اسطاوالي وحصن الإمبراطور، وقع الداي حسين معاهدة الاستسلام وفر مع عشيرته وجنده تاركا المجال مفتوحا لانتشار الفوضى في ظل غياب سلطة قادرة على إعادة تجميع القوات واستئناف القتال، لقد أحدثت صدمة الهزيمة ودخول العدو إلى الجزائر شللا عام حاولت بعض القبائل تجاوزه من خلال تنظيم نفسها والتصدي للغزاة، لكن اختلاف وجهات النظر، وتباين آراء زعمائها وافتقارها إلى قائد في مستوى المهمة، يتسلم المسؤولية ويوحد الجميع تحت راية الجهاد، جعل تلك المحاولات تنتهي إلى الفشل على غرار ثورة باي التيطري مصطفى بومزراق وابن زعموم في المتيجة، والحاج سيدي السعيد في العاصمة والأغا محي الدين بن مبارك في القليعة، لكن هذه المبادرات، ونتيجة للنظرة الضيقة، انعدم بينها التنسيق والوحدة، وافتقدت، كما أسلفنا الذكر، إلى قيادة عسكرية مركزية، فكان مآلها الفشل على جميع الأصعدة، كان هذا الوضع السائد في المنطقة الوسطى من

البلاد غداة الاحتلال[3].

لم يختلف الوضع في الجهة الغربية من الوطن، فبعد دخول الجيش الفرنسي إلى مدينة وهران في جانفي 1830، حلت كذلك الفوضى على كافة إقليم المقاطعة خاصة في ظل غياب كل أشكال السلطة، وفي مبادرة لاستدراك الوضع من خلال إحلال النظام ومحاولة توحيد القبائل لمواجهة الاحتلال، لجأ سكان تلمسان وقبائل بني عامر إلى السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن من أجل تعيين خليفة له لحكم بايليك الغرب وتنظيم المقاومة، فاستجاب للطلب وعين أحد أحفاده؛ مولاي علي، لكن وتحت ضغط الاستعمار، لم يدم هذا المشروع طويلا وعاد الخليفة المعين إلى المغرب في مارس 1831، على إثر ذلك استمر البحث عن مخرج من تلك الوضعية، فأجمعت بعض القبائل: بني هاشم، البرايجية وبني عامر، على تعيين الشيخ محي الدين زعيم الزاوية القادرية ووالد الأمير، سلطانا عليهم وقائدا للمقاومة.

ولكنه لم يقبل سوى بقيادة الجهاد، وبالفعل قاد عدة معارك ضد الاحتلال، أشهرها معركتي خنق النطاح الأولى في 04 ماي 1832 والثانية في بداية شهر أوت 1832، وبالموازاة مع ذلك شرع في توحيد القبائل في جبهة واحدة لمواجهة العدو الفرنسي[4].

بعد استلام الأمير عبد القادر الإمارة بدأت مرحلة جديدة اتسمت بتسارع الأحداث على إقليم المقاطعة (بايليك الغرب) ميزاها الانقسام القبلي بين مؤيد ومعارض لسلطة الأمير، وهكذا توزعت السلطة على الإقليم. ففي الوقت الذي كان فيه الاحتلال يُثَبِتُ وجوده في مدن وهران ومستغانم والمرسى الكبير، كانت أغلب القبائل تناور بصفة منفردة من أجل الحفاظ على استقلالها في حدود منطقتها الضيقة، معلنة رفضها المطلق لسلطة الأمير، بل حاول بعضها التخلص منه بالتعاون مع الاحتلال[5].

هكذا كان حال الجبهة الداخلية التي كان يفترض أن يعتمد عليها الأمير في إرساء سلطته وفي مقاومته للاحتلال، ولذا اضطر للعمل على محورين؛ مواجهة الجيش الفرنسي، وفرض سلطته بإرغام القبائل الرافضة بالدخول تحت لوائه، أي بناء جبهة داخلية قوية يعتمد عليها في حربه ضد الاحتلال.

. بناء الجبهة الداخلية

كان الأمير يدرك أن مجابهة المحتل لا يمكن الدخول فيها في ظل تفرق القبائل وتشتت اتجاهاتها، ولذا اعتمد على مبدأين كان أغلب هذه القبائل تحترمهما وتقدسهما، من أجل جمع شملها وتوحيدها تحت لواء الجهاد:

* **المبدأ الأول:** إحياء مفهوم القومية العربية ومبادئ الوطنية[6].

* **المبدأ الثاني:** تدعيم المبدأ الأول بالغيرة على الدين الإسلامي الحنيف وهذا لأن الأمير كان يدرك مدى تعلق الجزائري بعقيدته، وغيرته عليها.

وجه الأمير الدعوة لاجتماع عام للقبائل في ربيع 1833 من أجل الوقوف على حقيقة تصرف هذه القبائل إزاء ما يحمله من مشروع، وقد لبى الدعوة عدد معتبر بينما رفضها البعض الآخر على غرار قبيلة فليته في سهل الشلف، حيث أظهر زعيمها سيدي العربي امتعاضا من هذه السلطة الجديدة، ونفس النهج سلكه الغمادي قائد بني أنجاد ومحمد بن نوثة في تلمسان الذي كان يفضل الولاء للسلطان المغربي، ومصطفى بن إسماعيل زعيم المحزن، فهؤلاء كانوا

على استعداد أن يعرضوا خدماتهم على الفرنسيين[7].

ومقابل هذه الأطراف المناوئة لبت قبائل كثيرة، كما أسلفنا الذكر-دعوة الأمير وعلى رأسها قبائل الغرابة، بني عامر، وبني مهاجر حيث اجتمع للأمير حوالي 8000 فارس و 1000 من المشاة شكل بهم الوحدات القتالية الأولى.

الأعمال القتالية الأولى:

شرع الأمير في تجسيد وبسط سلطته من خلال إصدار أمر لكل القبائل، ينص على عدم التعامل التجاري مع العدو، حيث تُكَيَّفُ كل مخالفة بأنها جناية قد تصل عقوبتها الإعدام، وفي الوقت نفسه، قام بتنظيم الجيش وتعيين هيئة أركان وتنصيب خلفائه على رأس القبائل الموالية له مع تكليفهم بالمهام القتالية الآتية:

- محاصرة الفرنسيين في مدينة وهران؛

- قطع كل طرق المواصلات ومنع وصول الإمدادات لهم، وقد أدى الحصار العسكري و الاقتصادي الذي فرضه الأمير إلى شل نشاط وحدات العدو، حتى كاد أن يهلكها الجوع في مدينة وهران.

بالموازاة مع هذه الإجراءات، ونظرا إلى أن الموقف العسكري لم يكن مريحا للأمير في ظل تضعضع جبهته الداخلية والمخاطر المحتملة التي قد يتعرض لها من طرف القبائل الرافضة لسلطته، فإن الأمير لم يكن له بديلا آخر عن اللجوء إلى القوة من أجل تهيئة وضع استراتيجي إيجابي للدخول في الحرب ضد الاحتلال، وانطلاقا من هذه القناعة، جهز الأمير جيشا قوامه حوالي 5000 مقاتل وتوجه إلى الشلف لتأديب شيخهم سيدي العربي الذي أعد العدة لمحاربة الأمير، ولكنه لم يصمد إلا فترة قصيرة وفر من المعركة، وبذلك دخلت قبيلة فليته تحت سلطة الأمير[8].

بعد أيام، انتهى إلى علم الأمير، بأن قاضي آرزيو أحمد بن طاهر يتعامل مع الاحتلال ،ويمده بالمؤن المختلفة عن طريق صهره سيدي لمزاري، الذي ألقي عليه القبض متلبسا بجرم الخيانة-كان متجها إلى وهران ومعه عدد كبير من الخراف والخيول- فقرر القاضي محاربة الأمير، لكن المعركة لم تدم طويلا حيث ألقي عليه القبض وأرسل إلى السجن وخضع أتباعه لسلطة الأمير، وكان نفس الموقف من طرف إبن نونة في تلمسان ،الذي فضل الولاء لسلطان المغرب بدلا من سلطة الأمير، حيث رفض الانضمام إلى جبهة الجهاد ضد المحتل ولذلك اضطر الأمير إلى التوجه إلى تلمسان، حيث لقي القبول لدعوته من طرف زعماء القبائل باستثناء الحاج مصطفى بن الباي عثمان الذي رفض سلطة الأمير، فعزله الأمير وعين مكانه إبن نونة الذي كان لاجئًا في مراكش والذي عاد بطبيعة الحال وأصبح من أكبر مؤيدي ومدعمي الأمير[9].

II. االمعارك ضد الاحتلال الفرنسي:

كان للحصار الذي ضربه الأمير على الوحدات الفرنسية المتواجدة في مدينة وهران آثارا كبيرة، حيث شل نشاطها وكاد أن يفتك بهم الجوع، وفي إطار البحث عن الحلول، تم استبدال قائد هذه القوات بجنرال جديد (دي ميشال) عله يجد مخرجا من الوضع العسكري الذي تعيشه قواته.

بعد دراسة الموقف بدقة، قرر هذا الجنرال اعتماد استراتيجية هجومية، واستهدف في البداية مركز الثقل بالنسبة للأمير في قبيلة بني عامر الغرابة، فجهز جيشا يتكون من المشاة بقوام خمسة آلاف (5000) مقاتل وخيالة بقوام أربعمائة (400) فارس إضافة إلى عناصر الهندسة وانطلق اتجاه مضارب الدوايز والزمالة فالتقى الطرفان في سهول تليلات، وكان عنصر المفاجأة حاسما في المعركة، بحيث لم تصمد قبيلة الغرابة سوى مدة قصيرة، وأسرت القوات الفرنسية عددا كبيرا من أطفال ونساء وشيوخ القبيلة.

انتهى إلى علم الأمير خبر المعركة ونتائجها، فلم يطل الانتظار، حيث جهز جيشا وانطلق صوب مقر القبيلة، والتقى في المكان المسمى عين التينة ويقع جنوب مدينة وهران ببضع كيلومترات. وقد كادت هذه المعركة أن تحسم لصالح الأمير، لكن وصول الإمدادات واستعمال المدفعية بكثافة من طرف جيش الاحتلال، أرغم الجيش الجزائري على الانسحاب، ليعود بعد يومين من المعركة لمهاجمة

إحدى الحصون الواقعة قرب مدينة وهران[10].

هذه المعركة وقعت في شهر ماي 1833، وقد استمرت المعارك طيلة هذه السنة ضد الاحتلال وضد الحركات المناوئة، مثل معركة عين البريدية، آرزيو، مستغانم، الزمالة.

ثم تتوالى المعارك وتزداد ضراوة بين محتل يريد التوسع وجيش مقاوم يحاول منعه من تحقيق تلك الأهداف، فقد كان لا ينهي معركة إلى ليخوض أخرى، وبذلك استطاع إفشال مخططات الاحتلال، مما اضطر القائد الفرنسي (دي ميشال) إلى المبادرة في البحث عن هدنة والتي توجت بإبرام المعاهدة المعروفة بمعاهدة دي ميشال بتاريخ 26 فيفري 1834[11].

أحدثت هذه المعاهدة آثارا مزدوجة، فالأمير أبرمها انطلاقا من حاجته إلى هدنة تمكنه من بناء الجيش، وتنظيم مختلف جوانب إمارته، أما من جهة أخرى فقد أحدثت المعاهدة شرخا آخر في الجهة الداخلية، فالقبائل التي رفضت سلطته في البداية وأخضعت فيما بعد، وكأنها كانت تترصد فرصة التمرد، فما أن أعلن عن إبرام المعاهدة، حتى أعلنت تلك الأطراف رفضها وخروجها من حلف الأمير وبداية الإعداد لحربه. وكانت هذه الأطراف ذات ثقل كبير مثل مصطفى بن إسماعيل زعيم الدوائر والزمالة وسيدي العربي زعيم قبيلة فليته بالشلف وسيدي العمري شيخ الأنجاد وقدور بن المخفي من البريجة.

هكذا وأمام هذا التصدع الذي عرفته الجبهة الداخلية، أصبح من أولويات الأمير أن يعمل على إخضاع هؤلاء المتمردين حتى يستطيع الالتفاف إلى تنظيم إمارته وتثبيت حكمه واغتنام الفرصة لبناء الجيش. فالأمير كان مدركا لأهمية هذه الهدنة فسارع إلى إخماد نيران تلك الفتنة وتفرغ لترتيب الحكم وبناء الدولة مع منح الأولوية للجانب العسكري لإدارته بأن الجيش سيكون العمود الفقري لمشروعه الوطني، الذي كان يهدف إلى تحرير البلاد وتأسيس دولة وطنية ، تمتد سلطتها إلى كافة أنحاء إقليم الجزائر.

كانت الخطوة الأولى بتوسيع حدود إمارته من خلال مد سلطته إلى مليانة والمدية، ثم انكب على بناء الجيش مستغلا في ذلك أحكام المعاهدة، التي تسمح له باقتناء الأسلحة والبارود، مع ضمان الموارد المالية من خلال احتكار التجارة والسيطرة على ميناء آرزيو الذي استغله للتصدير واستيراد حاجياته بما في ذلك العتاد الحربي.

كان الأمير مدركا لعدم التكافؤ الكبير في القوى والوسائل بينه وبين العدو، وكان كذلك على قناعة تامة بان المعارك التي خاضها في المرحلة الأولى، وإن كانت مُرْهِقَةً للعدو، فهي لا تكفي لتحقيق هدفه الإستراتيجي المتمثل في طرد الاحتلال من الجزائر بصفة نهائية، بل يتطلب ذلك جيشا عصريا يضاهي في تنظيمه وتسليحه وكفاءته القتالية جيش العدو.

III. بناء الجيش:

يُقْصَدْ ببناء الجيش تحديد حجم القوات وقوامها وتنظيمها وقيادتها وتوزيعها الإستراتيجي وتعبئتها والتأمين اللوجيستيكي لها. ويخضع بناء القوات للقدرات الاقتصادية والوضع الاجتماعي والثقافي و الديموغرافي للمجتمع والموقع الإستراتيجي للبلاد، وأغراض الحرب وأهدافها السياسية وطبيعة العدو ونواياه وقدراته القتالية، ومسرح الحرب[12].

وطبقا لهذه القواعد أسس الأمير جيشا وفقا للمنهجية الآتية:

أ. حجم القوات وتنظيمها: بنى الأمير جيشا نظاميا يتكون مما يلي:

1. الخيالة:

يتألف هذا السلاح من كتائب تضم كل منها ألف (1000) فارس بقيادة آغا، وتشكل الكتيبة وحدة تكتيكية يقابلها في الجيش الفرنسي الفيلق (Bataillon)، وتنقسم الكتيبة إلى سرايا يحكم كل منها قائد يلقب بالسياف، وتنقسم السرية إلى فصائل يقود كل منها رئيس صف يساعده جاويش[13].

فارس من فرسان الأمير عبد القادر

2. المشاة أو العسكر المحمدي:

تم تنظيم المشاة في كتائب قوام كل منها ألف (1000) مقاتل، وتنقسم كل منها إلى سرايا، تتكون من مائة (100) مقاتل لكل منها، ثم تقسم السرية إلى خباء كل منها يضم ثلاث وثلاثين (33) مقاتل، قائد هذا السلاح يعينه الأمير حيث يضطلع بأعباء القيادة المباشرة فينظم الوحدات الفرعية ويشرف على تدريبها وتجهيزها لتنفيذ ما يوكل لها من مهام[14].

3. سلاح المدفعية أو الطوبجية:

تألف هذا السلاح من حوالي 240 عنصرا، شكلوا سدنة المدافع العشرين (20) التي كانت بحوزتهم بمعدل إثنا عشر (12) فردا لكل مدفع بإمارة رئيس ونائب له، وقد سمي قائد هذا السلاح: باش طوبجي[15].

4. الحرس الأميري:

وهو وحدة فرعية تتكون من خمسمائة (500) مقاتل، اتخذهم الأمير لحمايته أثناء المسير وفي القتال وحراسته أثناء التوقف.

وقد بلغ تعداد هذا الجيش النظامي بكل مكوناته حوالي عشرة آلاف (10000) مقاتل، ويبدو أن الأمير حرص على تحديد حجم قواته النظامية بالحجم الذي يضمن له تحقيق الأهداف الرئيسية للفترة الابتدائية للحرب دون تعبئة إضافية للقوات حتى يتفادى الإبقاء على قوات كبيرة تُنْهِكُ قدراته المالية والاقتصادية[16].

التزم الأمير في بناء جيشه بمبدأ تكوين قوات احتياطية تكون جاهزة للقتال بالتعبئة والنفير وقد أطلق على هذه القوات تسمية الجيش المساعد أو الجيش غير النظامي. شُكِلَ هذا الجيش في قسمه الأكبر من جيوش القبائل المتواجدة على إقليم سلطة الأمير. وقد كانت هذه الوحدات تسارع للالتحاق بالوحدات النظامية عندما يعلن النفير، ثم تعود إلى ديارها فور انتهاء المهمة القتالية، وقد كانت هذه القوات تُستخدم كذلك في المحافظة على الأمن والنظام العام داخل المقاطعات. وقد كان تعداد هذه الوحدات يتغير من سنة إلى أخرى، فقد بلغ مثلا سنة 1838 حوالي 83 ألف مقاتل من مشاة وفرسان، وفي العام الموالي 53 ألف. وقد تعدت نسبة الفرسان في هذا الجيش 70% [17].

ب. مراعاة القدرات الاقتصادية والوضع الاجتماعي والثقافي للسكان:

كان الجيش النظامي للأمير لا يتعدى في تعداده ما تتطلبه المعركة في مرحلتها الأولى، كما أسلفنا الحديث، ومن حيث التجنيد، نجد أن الأمير لم يتبع طريقة التجنيد الإجباري على غرار العثمانيين وذلك مراعاة لنفسية الجزائري لهذا الإجراء بطبيعته الإجبارية والتي تتعارض كذلك مع طبيعة حياة القبائل في الأرياف.

ولذلك فضل الأمير التجنيد الاختياري مع وضع مجموعة من الشروط تتمثل فيما يلي:

- أن يكون المجند جزائريا، مسلما، عاقلا، بالغا وحرا؛
- أن ينصرف إلى الجهاد وأن لا يمارس أية مهنة أخرى؛

. يسجل في سجلات رسمية (الدفاتر الأميرية) حيث تحدد حقوقه وواجباته؛

. أن يخضع لأنظمة الجيش المحمدي وقوانينه.

وقد وضع الأمير نظاما دقيقا للترقية في الرتب مع التمييز بين مختلف الأسلحة، كما خص كل صنف من قواته ببذلة مميزة، وحدد رواتب الأفراد ونظام التغذية ووضع قانون العقوبات والجرائم العسكرية والأجهزة القضائية العسكرية.

ج. مبدأ التوزيع الإستراتيجي للقوات والتعبئة:

يقصد بالتوزيع الإستراتيجي للقوات نشر الوحدات على الاتجاهات الإستراتيجية أو في مناطق حسب التهديدات القائمة، وبما أن إقليم سلطة الأمير كان في مجمله مستهدفا، فقد عمل الأمير على إنشاء نظم حماية للعاصمة معسكر والمدن التي كانت تحت سلطته، وفي نفس الوقت كانت قواته دائمة التنقل والحركة حسب مقتضات القتال.

د. التأمين اللوجستيكي:

ويتكفل به جهاز إداري وطبي يسهر على توفير الظروف الملائمة للمقاتل لكي يؤدي مهامه بفعالية. الأمير لم ينشئ جهازا مستقلا يتكفل بهذه المهام، بل ألحق بكل وحدة قتالية عناصر مكلفة بالتموين، وزودها كذلك بمستشفى متنقل لمعالجة المرضى والجرحى على جبهات القتال، كما أنشأ في كل عاصمة مقاطعة، مستشفى يديره طبيب.

هـ. رفع الجاهزية القتالية:

مقتضاها إعداد القوات ماديا ومعنويا بكيفية تمكنها من البدء في الأعمال القتالية بشكل منظم وفي الآجال المحددة وتنفيذ المهام بنجاح وفعالية، ويعتبر التدريب العامل الأساسي في هذا الميدان، إذ لا يمكن الحصول على العمق النوعي للقوات إلا بالتدريب و الانضباط الصارم المبني على حب المهنة والرغبة والإيمان والارتباط القوي بالوطن. وقد حرص الأمير على هذا المجال، حيث استقدم مدربين أكفاء من تونس وطرابلس وألحق بقواته مجموعة من الفارين من الجيش الفرنسي، كما كان يشرف على التدريبات بنفسه ويشارك في المناورات التي يتم إجراؤها تتويجا لانتهاء كل دورة تدريبية.

وهكذا استغل الأمير المعاهدة المبرمة مع العدو في تحقيق إنجازات معتبرة في الميدان العسكري من خلال تنظيم وتدريب وتسليح جيشه، وفي الميدان الاقتصادي من خلال احتكار التجارة وإيجاد الموارد المالية الضرورية، كما استطاع إطفاء نار الفتنة التي أرادت بعض القبائل إثارتها، فتعززت الجبهة الداخلية، مما مكن المير من بسط سلطته على المقاطعة الغربية باستثناء مدن وهران ومستغانم والمشوار بتلمسان خاصة بعد أن ضم إلى إمارته المدية و مليانة.

. نقض المعاهدة والعودة إلى الحرب

حقق الأمير مكاسب كبيرة بموجب المعاهدة، وهذا ما أزعج أطرافا كانت على رأس سلطات الاحتلال، لاسيما القائد العسكري للمقاطعة الغربية الجنرال (تريزل) الذي بدأ العمل منذ تعيينه على إلغائها وتهديم ما بناه الأمير، وقد حاول هذا الأخير حل الخلافات من سلطة الاحتلال بالطرق الدبلوماسية، لكن محاولاته انتهت إلى طريق مسدود خاصة بعد أن قام القائد العسكري (تريزل) بعقد اتفاقية عُرِفَتْ بمعاهدة التينة مع قبيلتي الزمالة والدوائر اللتين كانتا دائما تبحثان عن الفرصة للخروج عن طاعة الأمير ومحاربته إلى جانب القوات الفرنسية.

كانت أحكام هذه المعاهدة إلغاء ضمنيا لكل ما جاء في معاهدة (دي ميشال)، ولذا رفضها الأمير وشرع في الاستعداد للحرب.

تسارعت الأحداث، وانتهت إلى الصدام بين الطرفين في المكان المسمى غابة مولاي إسماعيل في 26 جوان 1835، تم تبعتها مباشرة معركة المقطع في 28 جوان 1835، حيث حقق الأمير نصرا تاريخيا جسد أول ثمار ما قام به من إصلاحات في إمارته.

وضعت هذه المعركة حدا لغطرسة الجنرال (تريزل) وكانت سبب تنحيته وتعويضه بالجنرال (كلوزال) الذي كان أكثر راديكالية وعدوانا تماشيا مع موقف بلاده الذي

اعتبر بأن تعاظم قوة وسلطة الأمير تحد للشعور الوطني الفرنسي.

استلم (كلوزال) مهامه وشرع في محاولة محو آثار الهزيمة النكراء التي لحقت بجيش الاحتلال في المقطع، ثم جمع ضباط أركانه وقادة القطاعات العسكرية، لعرض الخطوط العريضة لإستراتيجيته والتي تتلخص فيما يلي:

- العمل على أسر الأمير أو إجباره على الاستسلام؛
- احتلال العاصمة معسكر مركز قوة الأمير؛
- تعزيز التواجد في تلمسان واتخاذها نقطة انطلاق للتوسع نحو المناطق الداخلية؛
- التمركز عند مصب نهر التافنة لمنع وصول الأسلحة والذخائر التي تأتي عبر مضيق.

أدرك عبد القادر منذ البداية أن الحرب ذات طبيعة لا تناظرية نظرا لاختلال ميزان القوى بين الطرفين، و لذالك كانت توجيهاته لأولى خلفائه توصيهم بأن لا يحاربوا الفرنسيين في جمع كبير، و أن يقتصروا على مضايقتهم و مطاردة أجنحتهم و قطع خطوط اتصالاتهم و الوقوع على معداتهم و وسائل نقلهم، و التراجع الخادع (التظليل) ونصب الكمائن، والهجوم المفاجئ لإذاعة الارتباك و الحيرة و الدهشة فيهم .

ومع بداية الأربعينيات عندما اشتدت ضراوة الحرب كتب للمجرم الجنرال بيجو قائلا «**إن اعتراضنا لكل القوات التي تجرها خلفك يعتبر ضربا من الجنون، و لكننا سنرهقكم، و نزعجكم ثم نقضي عليكم مجموعة وراء أخرى، والظروف المناخية تكمل الباقي**» [18].

جسد الأمير هذه الآراء ميدانيا من خلال اعتماد استراتيجية محكمة، تطورت حسب تطور الموقف العسكري وحسب التطور الذي عرفه جيشه من حيث التسليح و التدريب.

ففي المرحلة الأولى الممتدة من 1832-1834، اعتمد الأمير على الحصار العسكري والاقتصادي للقوات الفرنسية، إضافة إلى الكمائن والهجمات الخاطفة على المفارز المنعزلة للعدو وقطع طرق المواصلات.

المرحلة الثانية من 1834-1839، في هذه المرحلة بنى الأمير جيشه النظامي، وطور من قدراته القتالية بواسطة التدريب الجيد، و التسليح لا سيما إدخال سلاح المدفعية، فأصبح ينفذ هجمات كبيرة على القوات الفرنسية مع اعتماد المباغتة وسرعة التنفيذ بالموازاة مع تطبيق أسلوب حرب العصابات لإرهاق العدو وتحطيم معنوياته، واستغلال نقاط ضعفه والمحافظة على التماس دائم مع العدو.

المرحلة الثالثة من 1839 إلى النهاية: في الوقت الذي كان فيه الجيش الفرنسي يزداد عدة و عتاد، فقد الأمير أغلب مدن مقاطعته، و تراجعت قدراته القتالية فاعتمد أسلوب الحرب المتحركة، فقد كان ينتقل من منطقة لأخرى معتمدا حرب العصابات و نصب الكمائن.

. فن الحرب عند الأمير

يعرف (هيرفي كوطو بيغاري) مبادئ فن الحرب بأنها مجموعة قواعد قتالية عامة تهدف إلى منع العدو من فرض إرادته.

ويعرفها اللواء الركن ياسين سويد في كتابه «الفن العسكري الإسلامي» بأنها مجموع الوسائل والأساليب التي تعتمدها أمة لتنظيم الجيوش وتعبئتها وتسييرها وتدبير أمور الحرب وإدارة المعركة بهدف تحقيق الأهداف العسكرية والسياسية المتوخاة.

ويرى بأن مبادئ الحرب ثلاث رئيسية وهي: التوازن النسبي بين الأهداف، القوى والوسائل، ثم حرية العمل، ثم مبدأ اقتصاد القوى. فهل كان الأمير مدركا لهذه المبادئ وهو لم يتخرج من مدرسة حربية، ولا يملك أية خبرة في القتال؟ وهل راعى هذه المبادئ خلال معاركه والتزم بها؟

أولا. مبدأ التوازن النسبي بين الأهداف، القوى، الوسائل : يشتغل هذا المبدأ على عنصرين القوى والوسائل ثم الهدف بالنسبة للقوى فهي بدورها تتكون من شق مادي وشق معنوي.

. الجانب المادي: مجموعة وسائل تستعمل للسيطرة على

العدو وتدميره، وتحدد هذه الوسائل كما ونوعا بناءا على طبيعة الهدف ودراسة قوى العدو. واستنادا لهذا المبدأ فإن القائد مطالب بالمقارنة بين قواته والقوات المعادية قبل تحديد الهدف واختيار أرض المعركة، ويدخل في حساباته تعداد الجيش وحالته المعنوية والأسلحة المتوفرة لديه ومدى فعاليتها.

. **الجانب المعنوي:** يعرف علم النفس الروح المعنوية بأنها الحالة العقلية للفرد في وقت معين وتحت ظروف معينة، ويحتل العامل المعنوي مكانة هامة في التخطيط الاستراتيجي لدى الجيوش، حيث أصبح تحطيم الروح المعنوية من أهم الأهداف الإستراتيجية التي تسعى الجيوش المتصاعدة إلى تحقيقها .

. **الهدف:** قبل التفكير في القيام بأي عمل، ينبغي معرفة غايته لأن هذه المعرفة الدقيقة تمثل أساسا للخطوات اللاحقة، توخي الهدف لا يقتصر على العمل العسكري بل على كافة مجالات الحياة.

تطبيق هذا المبدأ عند الأمير يتجلى من خلال ما يلي:

عند مبايعته شرع الأمير في تجنيد القبائل و حثها على الانضمام إليه لمحاربة الاحتلال ووظف في ذالك عنصري القومية العربية والإسلام. و قد كان إعلان مبدأ الجهاد في سبيل الله كفيل باستنفار المسلمين للتصدي للعدو فالجهاد فرض على المسلم لأغراض نبيلة، يستهدف رد عدوان أو الدفاع على العقيدة وقد أكدت وُجُوبَهُ آيات قرآنية وأحاديث نبوية، حيث يصبح فرض عين عندما يصل العدو إلى الديار الإسلامية ويهدد أمن وحرمات المسلمين وفي مثل هذه الحالة فالهدف عند الأمير كان محددا وبوضوح و هو طرد الاحتلال وبناء الدولة الوطنية.

بالنسبة للقوة والوسائل المادية فالأمير بدأ الحرب بجيش يتكون من بعض المئات من الفرسان والمشاة المسلحين في أغلبهم بالسيوف وبالموازاة كان منكبا على بناء جيش نظامي منظما ومدربا ومسلحا بما يؤهله لمواجهة العدو فهو بعد انتزاع حق اقتناء الأسلحة والبارود أدخل سلاح المدفعية لجيشه واشترى الأسلحة الخفيفة بل ووصل إلى بناء مصانع للسلاح، أما على مستوى الأعمال القتالية فالأمير لم يدخل معركة إلا بعد تحديد أهدافه وإعداد الوسائل الكفيلة لتحقيقها.

ثانيا. المبدأ الثاني:

حرية العمل ومعناه حرية إرادة القائد من قيود وضغوطات العدو وقدرته على السيطرة على الموقف القتالي والتحكم بأرض المعركة.

يشتمل هذا المبدأ أربع نقاط وهي: . تجميع القوة، حماية خطوط المواصلات الحيطة والتضليل أو إخفاء النوايا عن العدو:

. **تجميع القوى:** معناه قدرة القائد على تجميع قواته والتحرك نحو المعركة من أول إنذار وهو من مهام القائد خلال المعركة كذلك حيث لا يترك الفرصة للعدو لتجزئة قواته وتشتيتها. وقد طبق الأمير هذه الفكرة في أغلب معاركه، حيث كان ينسحب سواء للتضليل أو تحت ضغط القوات المعادية، ثم يقوم بتجميع قواته والعودة إلى المعركة بعزيمة أقوى، وهذا ما حدث في معركة المقطع، فالعدو اعتقد بأن الأمير انسحب نهائيا بعدما وقع في معركة غابة مولاي إسماعيل لكن الأمير أعاد تجميع قواته وتمركز حول مستنقعات المقطع وانتظر وصول جيش العدو حيث انقض عليه وعبث به كيفما أراد، كان الفاصل بين المعركتين يوم واحد فقط ونفس الإجراء التكتيكي قام به الأمير في معركة سيدي مبارك التي خاضها بعد ساعات فقط عن معركة العزوف وكذلك معركة سيدي يعقوب ومعركة السكاك.

. **حماية خطوط المواصلات:** اعتبر الكثير من القادة العسكريين بأن سر فن الحرب يكمن في السيطرة على طرق المواصلات عن العدو بواسطة الحصار و الكمائن، و في نفس الوقت أمن كل خطوطه حيث كان يتحرك بحرية ولم يحدث أن فاجأه العدو يوما وبطبيعة الحال لعبت معرفته الجيدة بالأرض دورا كبيرا في ذلك.

. **الحيطـــــة:** وتتحقق بواسطة الأعمال التي تنفذ في الميدان لمراقبة العدو ومعرفة تحركاته ونواياه. وتتمثل

هذه الأعمال في استغلال المعلومات الواردة من الجواسيس وتوسيع مدى المناورة اعتمادا على دراسة الأرض وتمركز القوات المعادية، وذلك لتجنب مواجهة العدو إضافة إلى تنفيذ عمليات استطلاع كثيفة.

وقد تجسدت هذه الفكرة (الحيطة) عند الأمير من خلال عمليات استطلاع أراضي المعارك وتقييم قوات خصمه، من خلال إنشاء مخافر مراقبة ثابتة في النقاط المهمة على مسالك القوات المعادية، وتنفيذ عمليات استطلاع بهدف استكشاف مواقع جيش الاحتلال وجمع المعلومات الضرورية، وقد طبق الأمير هذه الإجراءات في كل مسيرته القتالية،في حالة قيامه بمحاصرة القوات الفرنسية كان يستعمل عناصر الاستطلاع لإنذاره في أسرع وقت فيما إذا جاءت النجدة لإغاثة القوات المحاصرة.

. **إخفاء النوايا عن العدو:** ومعناه إخفاء فكرة المناورة عن العدو وتضليله باستعمال الحيل والتحركات الخادعة وتتم العملية سواء بنصب الكمائن أو بالحيل والمناورات التراجعية ثم المباغتة. وقد وظف الأمير الكمائن في العديد من المرات على غرار ما فعله في سهل تليلات قبل معركة غابة مولاي إسماعيل ومعركة المقطع وغيرها، كما استعمل الأمير المناورة وقد تجسدت بشكل واضح في معركة المقطع حيث نفذها من الجناحين على كتيبتين من جيش الاحتلال ثم أقحم كافة قواته في المعركة ونفس الشيء بالنسبة للمناورة التراجعية، فقد نفذها الأمير في معركة سيدي يعقوب حيث تراجع بجيشه ثم عاد وباغت العدو بهجوم عنيف بعد أن اعتقد هذا الأخير بان المعركة انتهت.

ثالثا. المبدأ الثالث: الاقتصاد بالقوة وهو مبدأ أساسي من مبدأ فن الحرب، ومقتضاه فرض الإرادة على العدو بأقل التكليف الممكنة ويرتكز هذا المبدأ على ستة قواعد وهي:

. حشد أقصى الوسائل وأقصى الفاعلية، فهو الوسيلة الحاسمة للحصول على التفوق وتحقيق النصر، ويتم ذلك عن طرق زج القوى والوسائل وتركيزها في اتجاه الضربة الرئيسية. ففي المقطع وبعد المناورة على الجناحين، أقحم الأمير قواته كلها مركزا حيث انتهى الأمير بتدمير العدو.

. التعاون ويعني تنسيق جهد القوات المشاركة في القتال للحصول على أقصى مردود لها وقد كان الأمير يراعي هذه القاعدة من خلال إسناد مهام متكاملة بين مكونات الجيش النظامي وجيش القبائل (غير نظامي) حيث كان ينفذ الهجوم بانسجام وتنسيق دقيق بين هذه الفئات.

. اختيار الوقت المناسب: كان الأمير يعتمد كثيرا على تقارير جواسيسه وعناصر استطلاعه، ثم يختار وقت بدء المعركة بما يحقق المفاجئة، ففي غابة مولاي إسماعيل أعطى الأمر لبدء المعركة مع دخول مقدمة الجيش الفرنسي إلى الغابة، حيث شل قائدها وفي التافنة فاجأ القوات الفرنسية وهي تستعد للتحرك اتجاه جزيرة رشقون ونفس الشيء بالنسبة لأغلب معاركه.

. اختيار المكان المناسب: وهي قاعدة مهمة تقتضي اختيار أرض المعركة بدقة وعناية ما يحقق فكرة المناورة عند القائد ويضمن نجاح خطته القتالية وقد كانت المعرفة الجيدة للأمير بالأرض تساعده في حسن استغلال هذه القاعدة حيث كان في اغلب الحالات هو الذي يفرض على العدو ميادين المعارك فكثيرا ما كان يهاجمه في الممرات الضيقة الإجبارية على غرار معركة السبع شيوخ، وسيدي مبارك ...إلخ

. المباغتة والسرعة في التنفيذ: كانت المباغتة قاعدة رعاها الأمير في معظم عملياته القتال حيث كان يهاجم في أوقات وأمكنة لا يتوقع العدو التعرض فيها لأي خطر. فقد حدث وأن تعرض جيش الاحتلال لهجوم وهو في طريقه من وهران إلى تلمسان لنقل الإمدادات إلى الحامية الفرنسية هناك ولم يكن العدو يتوقع هذا الهجوم لأن الأمير كان آنذاك في المدية. ونفس الأمر في الكثير من المعارك.

. الاستمرار في الجهد: وتعني هذه القاعدة متابعة العدو باستمرار واتخاذ الإجراءات القانونية القتالية للسيطرة على الموقف بعد انتهاء المعركة والاستعداد للعودة إلى القتال من خلال تقصي أخبار العدة وتتبع تنقلاته ومعرفة نواياه.

وقد كان الأمير بعد كل معركة مهما كانت نتيجتها يحرص على البقاء في تماس مع العدو، ويتتبع تنقلاته بهدف التحضير للمعركة المقبلة أو لمنع العدو من إعادة تجميع قواته وتنفيذ هجوم معاكس.

في غابة مولاي إسماعيل مثلا، لم ينتصر الأمير، بل تراجع بجيشه وبقي قريبا من العدو يرصد تحركاته، وعندما سنحت الظروف الملائمة دخل معركة أخرى (المقطع) التي انتصر فيها، وبالرغم من ذالك بقي في أرض المعركة حيث استطاع منع العدو من تجميع قواته لتنفيذ هجوم مضاد. وقليلا ما كان يقطع التماس مع العدو.

خاتمـــــــــة

ونشير إلى أن الأمير اعتمد في حربه للاحتلال الفرنسي على مبدأ الجهاد المستمد من العقيدة العسكرية الإسلامية التي وجهت كل أعماله القتالية، مستلهما من معارك الرسول صلى الله عليه وسلم والقادة المسلمين لا سيما خالد ابن الوليد رضي الله عنه. ولذا كانت حرب الأمير حربا أخلاقية عادلة.

وقد بدأ الأمير مسيرته الجهادية لرد الظلم والعدوان، وتجسيد مشروع دولة وطنية حديثة على إقليم الجزائر. لكنه بعد صراع مرير اضطر إلى توقيف القتال تحت ضغط العوامل الآتية:

. أن موارده الاقتصادية المسخرة للمجهود الحربي، لم تكفي لبناء جيش في مستوى جيش الاحتلال الفرنسي من حيث التعداد و المعدات و التسليح، فالجيش المحمدي لم يتعدى تعداده عشرة ألاف مقاتل بل كان يتناقص.

. عدم وجود دول قوية حليفة لمده بالأسلحة و المعدات المتطورة.

. فقدان العمق الاستراتيجي لإمارته وهو المغرب بعد رفض السلطات مساعدته، والذي اختار التعاون مع الاحتلال بفتح جبهة قتالية من الجهة الغربية للقضاء عليه.

. الخيانات المتكررة من طرف بعض القبائل التي كانت تفتح هي الأخرى جبهات للقتال بالموازاة مع جيش الاحتلال، وقد نتج عن هذا هشاشة الجبهة الداخلية، ومع هذا فإن الأمير هو في الحقيقة من انتصر على الاحتلال، فهو الذي أشعل لروح المقاومة التي توارثتها الأجيال والتي كللت بانتصار الشعب الجزائري بعد ثورة نوفمبر المجيدة.

ونشير في الأخير أن هذا المقال لا يدعي أنه مستوفي للجانب العسكري للأمير، فهو مجرد إثارة الانتباه إلى المسيرة الجهادية لهذا الرجل للبحث فيها بعناية كموروث تاريخي نعتز ونفتخر به. وإنه لشرف كبير أن ننتمي لأمة أنجبت الأمير عبد القادر رحمه الله.

الهوامش

1- الدكتور أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر 1847-1808، ج 1، ط 1، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، 1983، ص 7.

2- المرجع نفسه، ص 12.

3- إبراهيم مياس، روح الأمير عبر المقاومة الجزائرية، دار هومة، 2016، ص 41.

4- Alex Bellemare: la vie politique et militaire de l'Emir AEK, Ed Dare Beni MEZGHANNA, 2015, p 30.

5- Charles Henry Churchil: lavie d'Abdelkader, Ed ANEP 2006, p 73.

6- Charles Henry Churchil: op.cit, p 73-74.

7- Charles Henry Churchil: op.cit, p 59.

8- أديب حرب، ص 142.

9- نفسه، ص- ص 97، 98.

10- Charles Henry Churchil: op.cit, p 80.

11- أ.ف دينيزن: الأمير والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، دار هومة، 1999، ص 43.

12- الفريق الركن طه نوري ياسين الشكرجي: إستراتيجية بناء القوات المسلحة، مطبعة الرائد 2007، ص 87.

13- إبراهيم مياس، المرجع نفسه ص-ص 25-26.

14- Fernand Patprni: l'Emir Abdelkader, Règlements et code militaire de l'armée musulmane, Ed Alpha, 2009, p 27-28.

15- Fernand Patprni: op.cit, p 27-28.

16- Iden.

17- Iden.

18- Charles Henry Churchil: op.cit, p 80.